تاريخ النص القرآني عند آرثر جفري
دراسة وتحليل في ضوء كتابه
(القرآن ككتاب مقدس)

Arthur›s History of the Qur›anic Text
Jafri study and analysis in light
(His book (The Qur›an as the Holy Book

م. د. مصطفى عبد الستار مول

Mustafa Abdel Sattar mooll

وزارة التربية العراقية

مديرية تربية بغداد الكرخ الثانية

mol2014mol89@gmail.com

ملخص البحث

يرمي هذا البحث ليكون إضافة علمية للبحوث والدراسات القرآنية التي تتناول مبحث تاريخ النص القرآني من منظور استشراقي، فإنّ البحث المعنون : تاريخ النص القرآني عند آرثر جفري / دراسة وتحليل في ضوء كتابه (القرآن ككتاب مقدس)، هو دراسة جديدة لآراء جفري (**A.jeffery**) في كتابه، الذي بحث فيه المراحل التي مرَّ بها القرآن الكريم من كونه وحيًا منزلًا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى ظهر كنص مكتوب وفقا لقواعد ومعايير وضعها النبي عليه السلام- ثم الصحابة من بعده حفظا وصيانة للنص القرآني.

الكلمات المفتاحية: تاريخ، النص القرآني، آرثر جفري.

Abstract

This research aims to be a scientific addition to Qur'anic research and studies that deal with the history of the Qur'anic text from an orientalist perspective.) in his book, in which he discussed the stages that the Noble Qur'an went through from being a revelation revealed to the Prophet (may God bless him and his family and grant them peace) until it appeared as a written text according to the rules and criteria set by the Prophet, peace be upon him - and then the companions after him in order to preserve and maintain the Qur'anic text.

Keywords: history, Quranic text, Arthur Jeffrey.

المقدمة

الحمد لله الذي حفظ كتابه العزيز على مرّ الدهور، وصانه من الزيف والزلل، وبعد: فإنّ أحق ما يشتغل به الباحثون، وأفضل ما يتسابق فيه المتسابقون، دارسة كتاب الله، ومداومة البحث فيه، فقد احتل القرآن الكريم المكانة الأولى والأهم بما لا يقارن بما سواه عند المسلمين، ولذا فإنّ الاهتمام به وبالدراسات التي تتناوله تعد من أولويات رواد الثقافة والعلم في هذه الأمة.

يرمي هذا البحث ليكون إضافة علمية للبحوث والدراسات القرآنية التي تتناول مبحث تاريخ النص القرآني من منظور استشراقي، فإنّ البحث المعنون : تاريخ النص القرآني عند آرثر جفري / دراسة وتحليل في ضوء كتابه (القرآن ككتاب مقدس)، هو دراسة جديدة لآراء جفري (A.jeffery) في كتابه، الذي بحث فيه المراحل التي مرَّ بها القرآن الكريم من كونه وحيًا منزلًا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى ظهر كنص مكتوب وفقا لقواعد ومعايير وضعها النبي عليه السلام- ثم الصحابة من بعده حفظا وصيانة للنص القرآني.

نظر جفري إلى القرآن كونه نصًا مرَّ بمراحل مختلفة، خضع في كل مرحلة منه إلى نوع من التغيير والتبديل، لذلك كان المقصد الأعظم للكتاب هو: مراجعة تاريخ النص القرآني وفقًا لهذه الرؤية التي انطلق من آرثر.

تبلغ أهمية تحديد الحقيقة التاريخية التي مرَّ بها النص القرآني كونه يلمس بصورة مباشرة إلهية الوحي القرآني ونسبته للوحي المنزل من الله تعالى، وذلك نتيجة لاختلاف المنهجية البحثية والمنطلقات الفكرية بين الرؤية الاستشراقية والرؤية الإسلامية.

إشكالية البحث:

تنبثق إشكالية البحث من تحديد المعالم التاريخية لتشكيل النص القرآني عند جفري، ودلالتها على تحديد المعالم التي انطلق منها آرثر؛ لتقرير الرؤية الاستشراقية، وتتلخص إشكاليات البحث بالأسئلة الآتية:

١. ما موقع تاريخ النص القرآني في الدراسات الاستشراقية ؟

٢. ما أبرز الوسائل والأدوات المنهجية التي تناولها جفري في بحثه عن تاريخ النص القرآني؟

٣. ما أبرز الإشكالات التي طرحها آرثر بخصوص تاريخ النص القرآني ؟

٤. كيف يؤثر تاريخ النص القرآني على مجال الوحي القرآني ؟

حدود البحث:

لكل بحث حدود يرسمها عنوانه الذي يدرس آراء جفري عن تاريخ النص القرآني في ضوء كتابه: القرآن ككتاب مقدس، الذي صدرت الطبعة الأولى منه المترجمة إلى اللغة العربية عام (٢٠١٩م) عن دار أبكالو للمترجم نبيل فياض، ناقش الباحث فيه النصوص التي تبين آراء آرثر حول تاريخ النص القرآني .

أهداف البحث:

تتلخص أهداف البحث في إعداد دراسة منهجية عن: تاريخ النص القرآن الكريم عند جفري وبيان الأبعاد المختلفة لتلك الأطروحات التي أوردها في كتابه، وكذلك شرح الأسباب الكامنة وراء بروزها وتحليلها، فضلًا عن الخلفية الفكرية التي انطلق منها آرثر عن تاريخ النص القرآني.

الدراسات السابقة:

يتميز موضوع البحث بالجدية والسبق على ما وصل إليه علم الباحث، ولعل ذلك يرجع إلى أنّ كتاب: (القرآن ككتاب مقدس) صدرت الطبعة الأولى منه المترجمة إلى

اللغة العربية عام (٢٠١٩م).

وهذا لا يعني: أنّ تاريخ النص القرآني عند المستشرقين لم يدرس في ثنايا الكتب والدراسات القرآنية، إلا أنّ الباحث قصد استكمال جهود سابقيه، في: إفراد بحثٍ مستقل يستوفي أبرز محاور الموضوع انطلاقًا من أحدث البحوث الاستشراقية.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث على المنهج التحليلي الوصفي في تناول تاريخ النص القرآني عند جفري، ولعل الاعتماد على هذا المنهج يصل إلى تنسيق البيانات والمعلومات وشرحها وعرضها وفقًا لمجموعة من القواعد التي تضبط سير فعاليات البحث وتحدد عملياته للوصول إلى نتائج دقيقة، والله الموفق للصواب.

تمهيد

تعريف بصورة موجزة عن المستشرق جفري

آرثر جفري (Arthur.jeffery) (١٨٩٢ ـ ١٩٥٩م): مستشرق استرالي، عُينَ أَستاذاً في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ثمّ في جامعة كولومبيا، من أبرز آثاره: نشر كتاب المصاحف للسجستاني (مؤسسة دي خويه، الجزء ١١، ليدن ١٩٣٧). وله عن نصوص القرآن الكريم وقراءاته دراسات وفيرة، أشهرها: القرآن (عالم الإسلام ١٩٢٤ – ٢٥ – ٤٠)، ودراسة عن مختصر شواذ القراءات لابن خالويه، (الدراسات الإسلامية ١٩٣٨) وأبو عبيد والقرآن (عالم الإسلام ١٩٣٨) والفاتحة (المصدر السابق ١٩٣٩) وقراءة زيد بن على (مجلة الدراسات الشرقية ١٩٣٧ و ١٩٤٠) وبمعاونة مندلسون: طريقة كتابة القرآن في سمرقند (الصحيفة الأمريكية الشرقية ١٩٤٢). وله:

كتابة القرآن (عالم الإسلام ١٩٥٠)[١].

المبحث الأول
القرآن الكريم من الوحي إلى الكتاب

المطلب الأول
النَّبي محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلم) والقرآن ككتاب

تلقى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الوحي الإلهي في سن الأربعين من عمره، وقتها ظل النبي محمدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) يتلو على أتباعه المؤمنين آيات القرآن الكريم الذي يُعد المَعلم الأساس للرسالة الإسلامية.

انطلق جفري في تشكيل العلاقة بين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والقرآن الكريم من النزعة القومية التي يراها، إذ يقول: « كان محمد ابن عصره وبيئته، والذي فكر وخطط للتفاصيل المتعلقة بتدبير أمر رسالته بلغة الحياة الدينية لعالمه المعاصر له، إنّ جزءًا من الحياة المعاصرة له في الجماعات الدينية الأكثر تقدمًا في زمنه كان استخدام الكتاب المقدس، وهكذا فقد كان جزءًا مما عليه أن يفعله لجماعته الدينية هو الخروج إليهم بكتاب مقدس، وهذا الكتاب المقدس هو القرآن الموجود الآن بين أيدينا»[٢].

حمل هذا النص في طياته الكثير من المغالطات التاريخية، فقد بدأ النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)دعوته في المجتمع المكي الذي كما هو معروف لا ينظر إلى الكتابة والقراطيس بعين الاهتمام في تلك الحقبة، لا كما يدعي جفري: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فكر وخطط أن يقدم كتابًا مقدسًا للعرب مماثلًا للأمم والجماعات الدينية

(١) ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي ، ط٣ مصر : دار المعارف : ٣ / ١٠١٣

(٢) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري، ترجمة نبيل فياض، ط١ المانيا : دار أبكالو : ٢١٢

خارج الحاضرة العربية.

في حين تؤكد جميع الروايات التاريخية: أنّ اهتمام العرب في حقبة الدعوة الإسلامية كان منصبًا على التجارة وتحصيل قوت عيشهم من دون أن تكون للكتابة والكتب اهتمامًا أو تأثيرًا في حياتهم، يقول السمعاني: أنّ أهل مكة لم يكن لهم زرع ولا ضرع إلا القليل، وكانت معايشهم من التجارة، وكانت لهم رحلتان: رحلة في الصيف إلى الشام، ورحلة في الشتاء إلى اليمن، وكانوا إذا خرجوا من مكة لا يتعرض لهم أحد، فإذا لقيهم قوم قالوا: نحن أهل الله فيكفون عنهم ولا يحاجون[1].

أما العرب بداخل الجزيرة العربية في زمن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد ظلوا محكومين بالنمط البدوي البعيد كل البعد عن الاهتمام بالكتابة والكتب ، التي ادعى جفري أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أسس دعوته تلبية لحاجة العرب إلى كتاب مقدس كالأمم المجاورة.

إنّ التهمة التي يرددها المستشرقون أن القرآن الكريم من تأليف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد رددها جفري في كتابه، قائلًا: «أنّ القرآن هو نتيجة تجربة محمد الدينية»[2]، ويؤكد هذه العبارة بقوله: «القرآن هو كتاب محمد، فطابعه الشخصي عليه من أول كلمة حتى الأخيرة»[3].

إنّ هذا الاتهام قديم، فقد ذكر القرآن الكريم هذا الاتهام الذي وجه إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من جانب خصومه، قال تعالى: ((وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ)) [العنكبوت: ٤٨]، دليل على أنّ النبي (صلى الله عليه وآله

(١) ينظر : تفسير القرآن ، السمعاني، ط١ السعودية : دار الوطن: ٦ / ٢٨٦
(٢) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري: ٨٩
(٣) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري: ٧٧

وسلم) لم يدرس الكتب المنزلة قبله، ولا كان كاتبًا، وأن معنى الأميّ فيه أنه لا يكتب ولا يحسب ليكون ذلك أتم في آيات نبوته، ولتنقطع حجة المبطلين عليه بأن يقولوا: حفظ هذا الكتاب من كتاب قبله، أو اكتتبه[1].

لم يكن القرآن الكريم إلا إرشادًا إلهيًا موحىً يتنزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا علاقة لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بإنزال القرآن بل هو مأمور بتبليغه، قال تعالى: ((وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي)) [الأعراف: ٢٠٣].

ومن غير المعقول أن يؤلف الرجل كتابًا ثم ينقد نفسه فيه، حيث عاتب القرآن الكريم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في آيات عدة، منها: سورة كاملة عنوانها عبس: ((عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى، وَهُوَ يَخْشَى، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ...)) [عبس: ١-١٠] وغيرها من الآيات ، وقد بلّغ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تلك الآيات من غير أن يجد في نفسه غضاضة[2].

إلا أنّ جفري يعد القرآن الكريم من تأليف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن: ▯إحدى النتائج الحتمية لمثل هذه الحالة، حيث النبي ذاته يطلق أقوالا تعتبر كتابًا مقدسًا لملته، هي أن الجماعة تجد نفهسا مقيدة بأن تعتبر أقوالًا جاءت في حالات خاصة ذات أهمية ومنية أو محددة على أنها صحيحة إلى الأبد▯[3]، وهذه النتيجة تبتعد عن الموضوعية

(١) ينظر: النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام ، القصاب، ط١ : دار القيم – دار ابن عفان: ٣ / ٥٩١

(٢) ينظر: الإسلام في قفص الاتهام، شوقي أبو خليل ، ط ٥ دمشق : دار الفكر دمشق: ٢٧ ــ ٢٨

(٣) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢٣٥

العلمية، ذلك لأنها نتيجة ناجمةً عن قرارٍ مسبقٍ واعٍ أو غير واع يتلاءمُ مع الميول الايديولوجية التي شكلتها الرؤية الاستشراقية عند روادها تجاه القرآن الكريم.

يورد جفري سلسلة من الأسباب والتعليلات التي تشكك بإلهية القرآن الكريم ، فيفترض أن معاصري النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اعترضوا عليه بأنه :» إذا كانت أقواله نصوصًا مقدسة فعلا لوجب أن تنزل دفعة واحدة ، لكنه عرف من التجربة : أن الإلهام يمسك الإنسان على غير توقع ، كما كان مدركا أن أقوال القائد الديني تفرضها الظروف[1] ، مشيرًا في هذا النص إلى قوله تعالى: ((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا)) [الفرقان:٣٢]، مدعيًا أن تنجيم القرآن كان وفقًا لما تمليه الظروف على النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فيؤلف الآيات وفقًا لتلك الظروف، وقد بيّن العلماء الحكمة من نزول القرآن الكريم منجمًا، منها: أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن من أهل القراءة والكتابة فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه ولجاز عليه الغلط والسهو، وإنما نزلت التوراة جملة؛ لأنها مكتوبة يقرؤها موسى، وأنه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم، وغير ذلك من الحكم[2].

وفي السياق ذاته استعمل جفري مصطلح الإلهام بديلاً عن مصطلح الوحي، في قوله: « عرف من التجربة: أن الإلهام يمسك الإنسان على غير توقع ، كما كان مدركا أن أقوال القائد الديني تفرضها الظروف[3]، ليشير إلى أنّ القرآن ما هو إلا نوع من

(١) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢٣٤

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب ، فخر الدين الرازي، ط٣ بيروت : دار إحياء التراث العربي : ٢٤ / ٤٥٧

(٣) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢٣٤

إلهام الكهان فاض به النبي من أعماق نفسه، والمتتبع لهذا المصطلح يرجع به البحث إلى الديانة اليهودية والنصرانية، ذلك أنّ الأنبياء العبرانيين تصوروا في الأساس: أنّ الإلهام يأتيهم من قوة خارجية، لكنهم أدركوا في النهاية أنّه نابع من طبيعة الروح الخاصة بهم[١]، وقد عُبّر جفري عن الوحي باصطلاح: الإلهام ، لكنّ الإلهام عنده يدل على: وجدان شخصي خاص، في حين لا يعرف الإسلام نبيًا بلغ الوحي بالإلهام ، بل رسلاً يتلقون الوحي من الله تعالى[٢].

وفي بحثه عن لفظ : كتاب، يطرح جفري أنّ كلمة كتاب :» تعني حرفيا كتابة ، ومن ثم صارت تعني: وثيقة مكتوبة، أما المعنى الخاص كتاب فيبدو أنه تطور في العربية تحت تأثير الآرامية «[٣]، وهذا الطرح يخالف الحقيقة اللغوية لكلمة الكتاب في اللغة: التي تطلق على كل كتابة ومكتوب، ثمّ غلب في عرف أهل الشرع على القرآن[٤].

وقد أكد علماء العربية في معاجمهم على عربية لفظة الكتاب، فأصل معنى كتب إلى جمع شيء إلى شيء، ويقولون: كتبت البغلة، إذا جمعت شفري رحمها بحلقة، قال:

لَا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيًّا حَلَلْتَ بِهِ ... عَلَى قَلُوصِكَ وَاكْتُبْهَا بِأَسْيَارِ[٥].

ويقول السرخسي: « اعلم بأنّ الكتاب هو القرآن المنزل على رسول الله (صلى الله

(١) ينظر: تاريخ الكتاب المقدس ، ارمسترونغ، ط١ : مكتبة الشروق الدولية ٢٠١٠م : ١٥٠

(٢) ينظر: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ط٢ بيروت :دار العلم للملاين ١٩٨٣م: ٣ / ١٨١ الهامش .

(٣) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٩٢

(٤) ينظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، الشوكاني، ط١ : دار الكتاب العربي ١٩٩٠م: ١ / ٨٥

(٥) البيت : لسالم بن دارة : أدرك الجاهلية والإسلام . ينظر : الإصابة في تمييز الصحابة، العسقلاني ، ط١ بيروت : دار الكتب العلمية١٩٩٤م:٣/ ٢٠٤

عليه وآله وسلم)، المكتوب في دفات المصاحف، المنقول إلينا على الأحرف السبعة المشهورة نقلاً متواتراً »[1].

وهناك من زعم أنّ جوار العرب لليهود الذين كانت لغتهم الدينية الآرامية: عَجَّل في انتشار كثير من الألفاظ الدينية الآرامية، وقد أشار المستشرق كرنكو Krenkow))[2]، في بحثه عن لفظ: كتاب إلى هذا المفهوم، كما نقل المستشرق بلاشير (Blachere)[3]، طائفة من الكلمات الدينية الآرامية والسريانية والعبرية، مؤكداً استعمال العرب لها من أثر الجوار مع اليهود وسواهم من أصحاب الملل »[4].

وحول مفردة القرآن في دائرة المعارف يرى جفري: أنّ كلمة كتاب: تشير لكتب الشرق الأدنى القديمة، وكتب المراسم والسجلات، بينما يُرجح الباحث فيدنجرن: إنّ المقصود بالكتاب في هذه الآيات كتاب سماوي واحد، وليس هناك دليل حاسم في القرآن الكريم لأيّ من هاتين النظريتين[5].

وهذا التخبط في تحديد أصل لفظ الكتاب، فضلًا عن تحديد دلالتها على المعنى المراد

---

(١) أصول السرخسي ، محمد بن أحمد السرخسي الحنفي، بيروت : دار المعرفة م (ب-ت): ١ / ٢٧٩

(٢) فريتس كرنكو (١٨٧٢ - ١٩٥٣ م) : مستشرق ألماني، من أعضاء المجمع العلمي العربيّ ، كان يسمي نفسه بالعربية : سالم كرنكو . ينظر : الأعلام، خير الدين الزركلي ط١٥ بيروت : دار العلم للملايين ٢٠٠٢ : ٥ / ١٤٤

(٣) ريجي بلاشير (١٩٠٠ ــ ١٩٧٣م): مستشرق فرنسي عين في السوربون ،من أبرز كتبه: ترجمته للقرآن الكريم إلى الفرنسية . ينظر : موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، الدار العلمية للفلسفة (ب- ت): ١٢٧

(٤) مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح ، ط٢٤ بيروت : دار العلم للملايين ٢٠٠٠م: ٢٠

(٥) ينظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية، هارتمان، ر، ط١ الشارقة : مركز الشارقة للإبداع الفكري ١٩٩٨م: ٨١٦٢ــ ٨١٦٣

منها، يوضح التلاعب المنهجي في دراسة الالفاظ وفقا للأصول اللغوية المعجمية التي تقرر دراسة لفظة الكتاب وغيرها من الألفاظ العربية انطلاقًا من المعاجم العربية ، فضلًا عن استعمالاتها اللغوية في عصر الاحتجاج اللغوي الممتد من قبل ظهور الإسلام إلى صدر العهد العباسي.

المطلب الثاني
بنية القرآن ككتاب

جرت بحوث ودراسات استشراقية كثيرة عن بنية القرآن الكريم وموضوعاته، وبسبب تلك البحوث فإننا نجد الموضوع أكثر وضوحًا بشأن محاور ومفاهيم موضوعات القرآن عند المستشرقين، وما قدمته تلك البحوث من نتائج توضح رؤية المستشرقين تجاه القرآن الكريم.

زعم جفري : إن ما تفوه به محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أنزل كرسالة إلى معاصريه تمامًا كما أنزلت الأسفار الأقدم منه إلى الشعوب الأولى ... فباستطاعتنا القول إن علاقة القرآن بالأسفار الأخرى كانت أنه: كان نسخة عربية عن الرسالة المعطاة فيها[1]، ولا يكتفي في هذا الصدد بهذه الإطلاقات التي يعضدها باستشهاد من القرآن الكريم ذاته، قائلا: وكون الكتاب في القرآن دائما شيئا مكتوبا ، فهذا أمر يتناسب مع الكتاب المقدس اليهودي والمسيحي ، لكن الصحف توحي على الأرجح بالمدرجات اليهودية ، من المهم أيضا أن القرآن يشير بشكل أكثر تحديدا إلى التوراة باعتبارها ذلك الذي سبق في تنزيله «[2].

ويمكن بقليل من الجهد إضعاف هذه التهمة ودفعها ، فما كان النبي أن يلجأ إلى

(١) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢١٣
(٢) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢١٤

التوراة وإلى ما ضمنته من أخبار بعيدة عن اهتمام العرب وجذبهم إلى ديانة الإسلام ، فضلًا عن ذكر تلك الاتهامات التي وجهت إليه في القرآن الكريم ونقضها ، ففي وقت مبكر من الدعوة القرآنية تتحدث سورة العنكبوت المكية عن هذه الاتهامات وتوجز الحجة في ردها، يقول تعالى: ((وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ، وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)) [العنكبوت: ٤٧ ، ٤٨].

يقول الماتريدي في قوله تعالى: ((فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)) [يونس: ١٦]. فقد لبث النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في مكة عُمرًا من قبل نزول القرآن ، فلم يدع ما أدعي للحال، ولا تلى ما تلاه ، أفلا يعقل خصوم القرآن أن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام- لم يخترع هذا القرآن من نفسه، ولكنّه وحي أوحي إليه؟! إذ لو كان اختراعا منه؛ لكان ذلك منه فيما مضى من الوقت ، وكان لابثا في مكة، فإذ لم يكن منه ذلك، أفلا تعقلون أنه لم يخترع من نفسه[1].

ويتصل بهذا السياق ما افترضه جفري من علاقة معارضة مشركي العرب للنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) انطلاقًا من العلاقة المضطربة مع أهل الكتاب، إذ يقول: « وقد لا حظنا للتو مقاطع تظهر أن جماعة معينة بين أهل الكتاب استاءت من كلام محمد عن وحيه ... لقد عرف مناوئوا النبي من العرب عن هذه المحاولات للتعلم عن الكتاب من أهل الكتاب وغير مقتنعين بأن جوهر رسالته لم يكن سوى : إعادة لأساطير الأولين »[2].

---

(١) ينظر: تفسير الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، ط١ بيروت : دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٥م: ٦ / ٢١

(٢) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢١٩

وهذه الفرية تذكرنا بقول كفار مكة حيث قال الله تعالى عنهم: ((وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)) [الفرقان: ٥]، وليس دعوى خصوم النبي حجة عليه، بل لما انقطعوا عن معارضة القرآن وقامت حجته عليهم، ادّعوا هذا عليه، وقد علمنا انه (صلى الله عليه وآله وسلم) ما قرأ هذه الكتب ولا اكتتبها ولا اختلط بأهلها، ولا تلقى ذلك عن أحد من الناس، لأنه ما من أحد يطلب فنا من الفنون وعلما من العلوم إلا وله في ذلك تارات وطبقات؛ فأول ذلك أن يكون طالبًا وسائلًا ثم يختلف إلى أهله ويصحبهم، فيكون تارة مبتدئا، ثم متوسطا ثم ماهرًا متقدما، وكل هذه الأحوال معروفة معلومة لأهل زمانه، ولأن عدوّه وطالبه والمتتبع لأمره والمفتش عن أحواله من قريش لو وجدوا في أمره ذلك ، لكشفوه وهاجموا به النبي[١].

ومن الموضوعات التي يرى جفري أنّها شكلت بنية القرآن الكريم، أفضلية القرآن الكريم على بقية الكتب السابقة، إذ يقول : في ثقافة بيئة محمد يبدو أنه كان هنالك أساس آخر يبنى عليه الاعتقاد بأفضلية كتابه على كل الكتب الأخرى ، فإذا كان هو خاتم الأنبياء فمن الواضح أن ديانته لا بد أن تظهر على ما عداها من أديان ٩ : ٣٣ ٥٨ : ٢٢ «[٢]. ويقول: نحن نجد الكتاب وقد أشير إليه على أنه: كريم، مجيد، عزيز ، مبارك ، لا يمسه إلا المطهرون، يجب أن يرتل ترتيلًا [٣].

في معرض كلامه عن قوله تعالى: ((وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ، بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ)) [العنكبوت : ٤٧ ٤٨].

(١) ينظر: تثبيت دلائل النبوة، القاضي عبد الجبار المعتزلي، القاهرة : دار المصطفى (ب ت): ١/ ٨٧-٨٨

(٢) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢٣٩

(٣) ينظر : القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢٣٩

يقول آرثر: « آية كلمة يمكن أن تعني: أعجوبة، وهكذا فمنذ تاريخ مبكر طورت الأرثوذكسية الإسلامية نظرية تقول: إنّ عجائبية القرآن تكمن في عجائبية كماله الذي لا يقارن كإنشاء عربي»[1]، وهذا هو مذهب إعجاز القرآن الشهير الذي هو حتى اليوم العنصر الأقوى الذي يعمل ضد أية مقاربة نقدية فعلية بين الشعوب الإسلامية لدراسة القرآن كتاب مقدس[2].

وبعض المستشرقين يتفقون مع جفري، أنّ الآية تعني: علامة مذهلة تشهد لسلطان من يصنعها، ويجب ألا تترجم بعلامة التي لا تعني سوى: إشارة، فهي: علامة إعجازية بالنسبة إلى المؤمنين بحق، وهذا اعتقاد مرتبط بعقيدة إعجاز القرآن[3]، ويشرح جفري: أنّه قد يكون العرب قد أخذوا لفظ الآية من المسيحيين الناطقين بالسريانية[4].

ويرى جفري أنّ معنى آية في اللغة يرجع إلى مفهوم: العلامة المعجزة، قائلا: «الآية والجمع آيات: العلامة، الدالة، المعجزة، الطائفة من القرآن، والعلامة أو الدالة هو المعنى الأصلي، وبهذا المعنى نجدها في الشعر الجاهلي، الجمع : آي، وآيات، وجمع الجمع آياء»[5].

ويذكر جيفر التطور الدلالي لمعاني الآية في القرآن الكريم: فالمعنى الأصلي للفظ الآية ورد في القرآن مرتبطا بجعل التابوت: آية لملك طالوت، وجعل الشمس والقمر آيتين للنهار والليل، وعجائب الطبيعة هي أيضاً آيات على وجود الله وقدرته ...الخ

(١) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢٤٥
(٢) ينظر: القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢٤٥
(٣) ينظر: القرآن في محيطه التاريخي، جبرئيل سعيد رينولدز ، ط١ بغداد : منشورات الجمل بيروت٢٠١٢م: ٢٢٠
(٤) ينظر: القرآن في محيطه التاريخي، جبرئيل سعيد رينولدز: ٢٢٠ ــ ٢٢١
(٥) موجز دائرة المعارف الإسلامية، هارتمان، ر: ٥٣

[1]، وهذا العرض يبين الاهتمام الكبير الذي أولاه جفري لدراسة مفهوم الآية في البنية القرآنية التي ميزت القرآن الكريم عن الكتب الأخرى.

وينتقل جفري في عرضه لموضوعات القرآن الكريم إلى مفهوم النسخ الذي يحاول أن يشير إلى كونه فكرة مقتبسة عن المسيحية، قائلًا:» لم تكن فكرة النسخ بحد ذاتها جديدة، فقد علّم بولس في رسائله مذهب نسخ الشرع، بمعنى أن الأحكام التي قدمها أحد الرسل من الله لا تعود صالحة ككل حين يأتي رسول جديد بوحي حديث عن سبيل الله لجيل جديد من البشر، وهكذا فبولس يعلن أن قواعد كثيرة من شرع موسى كانت مرحلة طفولية لتحضير البشر لشرع يسوع الجديد ... وهكذا بالنسبة لمحمد فإنّ الإعلان عن تشريع جديد للملة كان متلائما تمام مع إعلانه عن نبوته ﴾[2].

من الخطأ مقارنة ما جاء به بولس بما أوحي إلى النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي جاء ليكمل رسالة الأنبياء من قبله، وهذا ما صرح به القرآن الكريم في قوله: ((وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)) [المائدة :٤٨]، في حين قال بولس في الآية الثانية عشر من الباب السابع من الرسالة العبرانية: هكذا فإنه يصير إبطال الوصية السابقة أي: التوراة من أجل ضعفها وعدم نفعها، ثمّ قال في الباب الثامن من الرسالة المذكورة: هكذا فإنه لو كان ذلك الأول بلا عيب لما طلب موضع لثان فإذا قال جديدًا عتق الأول، وأما ما عتق فهو قريب من الاضمحلال، فأطلق بولس على التوراة أنه ضعيف عديم النفع ومعيب وقريب من الاضمحلال[3]، وشتان بين وصف بولس للتوراة، وبين وصف القرآن الكريم للعلاقة

(١) ينظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية، هارتمان، ر: ٥٤

(٢) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢٣٦- ٢٣٧

(٣) ينظر: المناظرة التقريرية بين الشيخ رحمت الله الهندي والقسيس بفندر، محمد رحمت الله الهندي

التكاملية بينه وبين الكتاب السابقة .

في معرض كلام جفري عن قوله : ((وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ)) [النحل : ١٠١] وقوله: ((مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا))[البقرة:١٠٦]، يقول: « يبدو أن المقطع الأول يشير إلى تبديل مقصود في أحد الأحكام في حين يوحي الآخر على الأقل أنّه في إصدار أمر ما يتعارض مع عبارة أقدم منه نسيها، وهكذا فحين يُذكر بهذه من الضروري تفسير التناقض »[١]. ويؤكد إطلاقه مفهوم التناقض على النسخ ، قائلًا:» ما يعرف بالناسخ والمنسوخ، والذي يجمع مختلف آيات القرآن التي تتناقض تعابيرها فعليا أو ظاهريا كل مع الأخرى«[٢].

وإنّما يمون النسخ في وقتين بأن يوجب حكما ثمّ يحله وهذا لا تناقض فيه، وتناقض الكلام لا يكون إلا في إثبات ما نفي أو نفي ما أثبت بحيث يشترك المثبت والمنفي في الاسم والحدث والزمان والأفعال والحقيقة، فلو كان الاسم حقيقة في أحدهما وفي الآخر مستعارًا ونفي أحدهما وأثبت الآخر لم يعد تناقضًا[٣].

وينتقل جفري إلى الطابع الأسلوبي للقرآن الكريم ، إذ يرى أنّ:» القرآن ليس شعرًا إنه نوع من النثر المقفى ذي بنيان الموزون الذي يشبه إلى حد ما اعتاد الكهان القدامى«[٤].

وهذا الاتهام قديم، ناقشه علماء الإسلام في كتبهم : فإنّ كلام الكهنة نثر غير منظوم، والذي يسمى بالسجع وهو مخالف للشعر، فمن قال إن القرآن الكريم ككلام الكهّان

الحنفي، ط١ القاهرة : مطبعة الجبلاوي « القاهرة ١٩٨٤م : ٨٢

(١) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢٣٨

(٢) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢٣٨

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ط١ القاهرة: دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٧م:٢/ ٥٣

(٤) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري :٢٤٦

فإنه ذاهل عن تذكر ما بُني عليه كلامهم من السجع الذي يتبعون فيه معاني ألفاظهم، وحقّ اللفظ في البلاغة أن يكون تابعًا للمعنى، وهو ما عليهْ القرآن كقوله تعالى: ((أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا)) [النمل: ٦١][1].

المبحث الثاني

القرآن بعد النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

يحتل القرآن الكريم المنزلة الأولى في الديانة الإسلامية، فهو: أكرم كتاب أنزله الله تعالى على خلقه لما فيه من الرشاد والهدى، ولذلك كان من أبرز مباحثه التاريخية التي تتناول تاريخ النص هو: مبحث جمع القرآن الكريم، الذي ظلَّ من أهم الموضوعات التي رافقت مسيرة هذا الكتاب العظيم.

ارتبط موضوع جمع القرآن بعد وفاة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عند المستشرقين بموضوع تحريف اليهود للكتب المقدسة وأولها التوراة، والتي كتبت بعد وفاة النبي موسى (عليه السلام) بخمسمائة عام، ضمّنوا خلالها الكثير من الاغاليط والافتراءات، وكذلك ارتبط هذا الموضوع بتحريف النصارى للإنجيل عيسى وما ادخلوا فيه من عقائد وتصورات فاسدة.

إنّ الحقيقة الراسخة في ثنايا التاريخ تثبت أنّ الصحابة الكرام ومن جاء بعدهم بذلوا جهودًا مضنية في صيانة القرآن الكريم والمحافظة عليه، انطلاقا من قوله تعالى: ((نَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) [الحجر: ٩]؛ يقول ابن العربي: فقد كان عنده

(١) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل ، الخطيب الإسكافي، ط١ مكة المكرمة : جامعة أم القرى ٢٠٠١م: ١ / ١٢٩٥

محفوظًا، وأخبرنا أن يحفظه بعد نزوله، ومن حفظه تيسير الصحابة لجمعه، واتفاقهم على تقييده وضبطه[1].

في حين يرى جفري أنّ مرحلة ما بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تمثل مرحلة تحريف وتغيير القرآن الكريم، إذ يقول: «الموجود في كل النسخ العادية المستخدمة شعبيًا: ليس نسخة طبق الأصل عن القرآن الأقدم، إنّما هو نص يعتبر نتيجة لعمليات مختلفة من التغيير؛ وذلك مع مروره من جيل إلى جيل»[2]، ويؤكد هذه المقولة الزائفة بقوله: «إن هذا التحديث للخط والتهجئة وتزويد النص بالنقط والعلامات الصوتية كانا فعلًا بنية حسنة؛ لكنهما تضمنا: تحريفًا للنص»[3]، في حين الحقيقة الثابتة أن التنقيط جاء صيانة وحفظًا للمصحف الشرف، لا للتحريف والتغيير فيه.

المطلب الأول
القرآن الكريم والجمع الأول

يمهد جفري لموضوع بداية جمع القرآن عن التشكيك بتلك المرحلة وزرع الأوهام فيها ، ليمرر النتائج التي يريدها والأحكام التي انطلق منها، فهو يقول: «إنّ تاريخ القرآن الأول ما يزال محجوبا في الغموض الأكبر»[4].

يعود تاريخ كتابة القرآن الكريم إلى حياة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي

(١) ينظر: أحكام القرآن ، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي ، ط٣ بيروت : دار الكتب العلمية٢٠٠٣م: ٢ / ٦١١

(٢) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري :٢٤٨

(٣) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري :٢٤٨

(٤) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري :٢٥٣

هذه المرحلة ينقل جفري عن الدكتور ريتشارد بل (Richard bell)[1] من أدنبره نتيجة تفيد: «أنّ دليلًا داخليًا من القرآن ذاته يشير إلى حقيقة أنه استطاع الكتابة، وأنه قبل موته ببعض الوقت قام بتحضير مواد لكتابه كان سيتركه لشعبه ككتاب مقدس»[2].

في حين يقطع القرآن الكريم الأمر في أميّة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ يقول تعالى: ((وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)) [العنكبوت : ٤٨] على أن النبي كان أُمِّيًّا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب، إذ لو كان ممن يقرأ كتابًا، ويخط حروفًا لارتاب المبطلون من أهل الكتاب؛ لأنّ في كتبهم أنه أميٌّ لا يكتب ولا يقرأ[3].

ويستشهد على دعواه بأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يستطيع الكتابة بروايات ضعيفة لا تصح، إذ يقول: «وهنالك فعلا حديث غير قانوني متداول بين الشيعة يقول: إنّ النبي جمع مقاطع آياته الموحاة المكتوبة على الأوراق والحرير والرق وقبل موته تماما أخبره صهره عليًا أن تلك المواد مخبأة خلف سريره وأمره أن يأخذها وينشرها في شكل مصحف»[4].

وهذا المفهوم تكرر عند غوستاف لوبون (G. Lebon)[5]، الذي يقول: وبيان الأمر

---

(١) ريتشارد بل (١٨٧٦ ـ ١٩٥٢م): مستشرق بريطاني عمل أستاذاً للغة العربية في جامعة ادنبرا، اهتم بدراسة القرآن الكريم، ترجم القرآن عام ١٩٣٧م. ينظر:المستشرقون، نحيب العقيقي : ٢/ ٥٢٨

(٢) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري :٢٥١

(٣) ينظر: الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنى الدليل ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، ط١ مكة المكرمة : المكتبة المكية ١٩٩٦م: ١١٠-١١١

(٤) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري :٢٥١

(٥) غوستاف لوبون (١٨٤١ - ١٩٣١م): مستشرق فرنسي، من مؤلفاته: سرّ تطور الأمم، وروح

أنّ محمدًا كان يتلقى في حياته عدة نصوص عن الأمر الواحد، فلمّا انقضت عدة سنين على وفاته حمل خليفته الرابع علي على قبول نص نهائي للقرآن مقابلًا لما جمعه أصحاب الرسول[١]، ويرفض نولدكه ((Noldeke هذا الطرح»[٢].

وقد أشارت بعض المصادر إلى هذا المفهوم، إذ رووا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال لعلي (عليه السلام): يا علي، القرآن خلف فراشي في المصحف و الحرير و القراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة، فانطلق علي فجمعه في ثوب أصفر، ثم ختم عليه في بيته، وقال: لا ارتدي حتى اجمعه، فانه كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه[٣].

وهذا الرواية تتناقض مع الروايات الثابتة التي رويت عن علي (عليه السلام) حين قال: «أيها الناسُ الله الله وإياكُم والغلوَّ في عثمانَ وقولكم حرَّاق المصاحف، فوالله ما حرَّقها إلا عن ملأٍ منا أصحابَ محمد»[٤].

ينتقل جفري بعد هذه المقولات لتشكيك بالجهود التي بذلها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في كتابة الوحي وتدوين القرآن، إذ يقول : أنّه لا يوجد بين أيدينا ، ربما هو على وجه التحديد ما أراد النبي أن يترك القرآن لجماعته على أنه الكتاب؛ لأنّه مات قبل

الجماعات، والآراء والمعتقدات، ينظر: غوستاف لوبون في الميزان، شوقي أبو خليل، ط١ بيروت: دار الفكر المعاصر ١٩٩٠م: ١٢ – ١٣.

(١) ينظر: حضارة العرب، غوستاف لوبون، مصر : مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة ٢٠١٢م:١٢١

(٢) نولدكه، ت (٢٠٠٠) تاريخ القران، نيويورك : جورج ألز .ص٢٤٤

(٣) ينظر: تفسير القمي، أبي الحسن علي بن إبراهيم القمي، بيروت : مؤسسة الأعلمي ١٩٩١م: ٤٥٥/٢

(٤) ينظر: الانتصار للقرآن، أبو بكر الباقلاني، ط١ عمان : دار الفتح ٢٠٠١م: ٢/ ٤٨٨

أن يصدره في مجموعة معتمدة[١].

ثبت أنّ النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) مات ولم يجمع القرآن في كتاب واحد؛ لأنّه إنما لم يجمعه في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر[٢].

ويسعى في هذا الاتجاه إلى التشكيك بوجود كتّاب للوحي، قائلًا في موضع آخر أنّ هنالك ما يوحي بأن:» النبي ذاته كان قد بدأ بتنظيم مجموعة قراء، والذين كانوا سيصبحون حماة الوحي ، لكن الدليل على هذا واهٍ للغاية»[٣]، في حين ذكرت المصادر التاريخية أنّ كتاب الوحي بلغوا خمسة وعشرين اسماً [٤].

ثمّ يتهم القرآء بتحريف القرآن والتلاعب بأقوال النبي وتضخيمها، قائلًا: «من المحتمل أنه حتى في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان هنالك أعضاء بعينهم من الجماعة والذين أظهروا اهتمامًا في جمع أقوال نبيهم ... نجد بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أعضاء بعينهم من الجماعة اهتموا بتضخيم مجموعاتهم من أقوال النبي وهؤلاء هم الذين صاروا يعرفون بالقراء»[٥].

وفي المقابل تذكر الروايات الإسلامية فضل هؤلاء القراء وجهودهم في حفظ القرآن

---

(١) ينظر: القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢١٢

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م:١ / ٢٠٢

(٣) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري :٢٥٣

(٤) ينظر: المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، أبو شامة، بيروت:دار صادر ، ١٩٧٥م: ٤٦

(٥) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري :٢٥٣

الكريم، وصيانته، إذ روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: ((استقرؤا القرآن من أربع، من ابن أم عبد وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة))[1]، وقوله: ((من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد))[2]، وكانت عنايته (صلى الله عليه وآله وسلم) بكتابة القرآن من أولويات الدعوة الإسلامية، فيما تيسر من أدوات الكتابة، إذ اتخذ كُتّابا للوحي القرآني من أصحابه، وأقر كل من يكتب القرآن لنفسه في الوقت الذي نهى فيه عن كتابة السنة في قوله: ((لا تكتبوا عني ومن كتب عني شيئًا غير القرآن فليمحه))[3]،[4].

ونلحظ من هذه الروايات الحرص النبوي على أن لا ينصرف المسلمون إلا إلى القرآن في كتابته ودراسته وحفظه.

المطلب الثاني

القرآن الكريم والجمع الثاني

بدأت مرحلة كتابة القرآن منذ نزول الوحي على النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وحتى مرحلة ما بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم).

يتناول جفري هذه المرحلة من الجمع القرآني، حيث يتهم الصحابة الكرام أنهم

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني ، ط ٤ بيروت: دار الكتاب العربي ١٩٨٤م: ١٢٣.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني، ط١ بيروت ، مؤسسة الرسالة ٢٠٠١م: ٢١١/١

(٣) صحيح مسلم ، مسلم بن حجاج النيسابوري ، بيروت : دار إحياء التراث العربي م (ب-ت):٤ / ٢٢٩٨

(٤) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن ، الزرقاني ، ط٣ القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي(ب ت): ١/ ٣١٣

أهملوا جمع القرآن، قائلًا: «فالجامعة بعد رحيل النبي بزمن طويل هي التي جمعت هذه الأشياء»[١]، وفي هذه النظرية يحاول أن يبرهن عليها بتعزيز الفرية وتجديد الاتهام حول إهمال الصحابة الكرام عن جمع القرآن الكريم، إذ يقول: «حين مات النبي لم تكن هنالك مجموعة مراجعة ومنظمة من مواد آياته الموحاة، إن ما لدينا هو ما أمكن جمعه في: وقت متأخر نوعا ما من قبل قادة الجماعة حين بدأوا يحسون بالحاجة إلى مجموعة أقوال النبي، وكان الكثير منها في ذلك الوقت ضائعا ولم يكن ممكنا تدوين أجزاء أخرى إلا بشكل متشظ»[٢].

تمّ جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة، وإجماع الأمة عليه دون نكير. وقال علي (عليه السلام): أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر فهو أول من جمع كتاب الله، وقد قوبلت تلك الصحف التي جمعها زيد بما تستحق من عناية فائقة[٣].

ويستمر جفري في محاولة إثبات التحريف مستشهدًا على ذلك بدعوى ضياع بعض من القرآن نتيجة معركة يوم اليمامة، قائلا:» فنحن نجد إشارات عديدة في التقليد إلى الآيات التي ضاعت في يوم اليمامة ، تكمل القصة فتقول: إن أبا بكر مانع متسائلا من يكون هو حتى يفعل شيئا لم يفعله النبي ذاته ولم يترك بشأنه وصية لكن عمر اقنعه «[٤]، فحين ارتدت بعض العرب بعد وفاة النبي عليه السلام، أرسل أبو بكر الجيوش لقتال المرتدين، قتل حينها عدد من القراء الذين يحفظون القرآن ، فخشي بعض الصحابة أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته، فأراد الصديق أن يجمع القرآن في مصحف

(١) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري :٢٣٥
(٢) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢٥٠
(٣) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن ، الزرقاني: ١ / ٢٥٣
(٤) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري :٢٥٤

واحد بمحضر من الصحابة.

فقد روي: إن عمر أتى أبا بكر (رضي الله عنهما) فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقرآء بالموطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسول الله عليه وسلم. قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي كنت تكتب الوحي لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتتبع القرآن فاجمعه)[1]،[2].

والناظر في هذه الرواية يظهر له بوضوح أنّ السبب الرئيس الذي دفع الصحابة لجمع القرآن الكريم هو حرصهم على حفظ القرآن وتوثيقه ، ولم يكن لما حدث في معركة اليمامة تأثيرًا على النص القرآني، بل كانت بمثابة الحدث الذي ألهمهم على الإقدام لجمع القرآن ولا مجال للاحتمالات التي طرحها آرثر من غير مستند تاريخي.

إنّ المؤرخ البارع لا يستفيض بالفرضيات والخيالات لملء التساؤلات التي تنبثق في مخيلته، بل ينبغي على المؤرخ أن يبحث عن الحقيقة التاريخية بيتتبع الروايات التي توثق الحدث، ويسعى إلى تحليلها من غير مبالغة في التأويلات البعيدة عن الحقيقة التي حملها الحدث، وقد بحث جفري عن تاريخ القرآن وفقا للمنهج السابق ، قائلًا عن مرحلة جمع الصديق للقرآن، بقوله: «ترغب النقدية الحديثة بقبول الحقيقة القائلة: إنّ أبا بكر كان عنده مجموعة مواد الآيات الموحاة المعدة لأجله، وربما أمر زيد بن ثابت بإعدادها،

(١) صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري، ط١ ، دار طوق النجاة ١٤٢٢ه ، باب جمع القرآن : ٦/ ١٨٣

(٢) ينظر: دراسات في علوم القرآن الكريم ، فهد الرومي ، ط١٢ السعودية ٢٠٠٣م: ٧٩

لكنها لا ترغب بقبول الزعم القائل: إنّ هذا كان تحريرًا رسميًا للنص»[١].

وأبعد جفري في الخيال والفرضيات البعيدة عن الحقائق المسندة ، إذ يقرر: «أنّ عمل زيد بن ثابت تم لأجل الخليفة الثالث عثمان ، لكن بما أن عثمان كان شخصية غير موثوقة بالنسبة للتقليديين المتأخرين، فقد اخترعوا تحريرا أوليا على يد أبي بكر بحيث لا يكون لعثمان شرف القيام بالتحرير الأول»[٢]، وينطلق في فرضيته المزعومة من الطعن بالخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، قائلًا: «نسمع بعد ذلك فترة طويلة أصداء عدائية القراء المرة لعثمان بسبب عمله الذي شرع به تقليد النص المدني وحرم استخدام أي نص آخر»[٣]، ولا ريب أن فضل الصديق (رضي الله عنه) سابق على عمل عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، إلا أنّ هذا لا يقلل من عمل عثمان الذي نسخ المصحف حتى نسب إليه، وكان ذلك على مشهد واجماع الصحابة الكرام (رضي الله عنهم).

لقد حظي الجمع الذي قام به عثمان بن عفان بإجماع الصحابة الكرام (رضي الله عنهم)، فقد روي عن علي بن أبي طالب قوله: ((يا معشر الناس، اتقوا الله، وإيّاكم والغلو في عثمان، وقولكم: حرّاق المصاحف، فو الله ما حرقها إلّا على ملأ منا أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم))[٤]، وعن عمير بن سعيد قال: قال علي (عليه السلام): ((لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان))[٥].

وفي مناقشة عمل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يرى جفري: أنّ عمله كان يهدف

(١) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري :٢٥٥
(٢) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري :٢٥٥
(٣) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري :٢٥٩
(٤) تاريخ المدينة لابن شبة ، عمر بن شبة البصري، جدة السعودية ١٩٧٩م: ٣/ ٩٩٥
(٥) المصدر السابق

إلى إخراج نسخة قرآنية بلهجة قريش، قائلا: «لكن أثناء خلافة وجد أن هذه المادة كانت تتلى من قبل جماعات المسلمين المختلفة في أشكال هجوية مختلفة... وطلب منهم أن يدونوا تحريرًا جديدًا بلهجة قريش النقية»[1].

ويصل إلى نتيجة أخرى تفيد: أنّ توحيد القرآن الكريم على لهجة قريش، كان ليغطي على:» القراءات المختلفة التي وصلت إلينا من مصحفي أبي وابن مسعود تظهر انها كانت اختلافات نصية فعلية وليس مجرد اختلافات لهجوية»[2].

تذكر الروايات التاريخية أنّ عثمان (رضي الله عنه) أمر زيد ابن ثابت ومن معه فنسخوا المصاحف، وقال عثمان: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ... ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمان على عبد الله ابن مسعود في جمع القرآن، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم في الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كله ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حي، والذي حفظ منه عبد الله بن مسعود في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نيف وسبعون سورة، فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حي اولى بجمع المصاحف وأحق بالإيثار والاختيار. كما الشائع الذائع المتعالم عند أهل الرواية والنقل: أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)[3]، والله أعلم بالصواب.

---

(١) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢٥٠

(٢) القرآن ككتاب مقدس، آرثر جفري : ٢٦٠

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله القرطبي ، ط٢ القاهرة : دار الكتب المصرية ١٩٦٤م :١ / ٥٢-٥٣

الخاتمة

بعد حمد الله تعالى، فإنّ أبرز النتائج التي توصلتُ إليها ما يأتي:

١. تناول البحث المراحل التي مرَّ بها القرآن الكريم من كونه وحي منزل حتى ظهر كنص مكتوب.

٢. قسم البحث جمع القرآن الكرم على مرحلتين: الأولى في عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث دوّن وجمع ، والثانية في عهد الصحابة الكرام حين جمع في مصحف واحد ونسخ للأمصار.

٣. تبلغ أهمية تحديد الحقيقة التاريخية التي مرَّ بها النص القرآني كونه يلمس بصورة مباشرة إلهية الوحي القرآني ونسبته للوحي المنزل من الله تعالى.

٤. يدعي جفري أنّ القرآن الكريم هو: كتاب محمد ، فطابعه الشخصي عليه من أول كلمة حتى الأخيرة.

٥. يؤكد جفري التأثر الأجنبي على القرآن الكريم ، وأنّه ما كان أكثر من نسخة عربية عن التوراة والانجيل، ومن ذلك قوله: المعنى الخاص لكلمة كتاب فيبدو أنه تطور في العربية تحت تأثير الآرامية؟.

٦. يزعم جفري أنّ مذهب إعجاز القرآن هو: الذي يعمل ضد أية مقاربة نقدية فعلية بين الشعوب الإسلامية لدراسة القرآن.

٧. يرى جفري أنّ مفهوم النسخ هو: تعبير عن جمع مختلف من آيات القرآن التي تتناقض تعابيرها فعليا أو ظاهريا كل مع الأخرى.

٨. يدعي جفري أنّ الموجود في كل النسخ العادية للقرآن المستخدمة شعبيًا اليوم ، ليس نسخة طبق الأصل عن القرآن الأقدم.

٩. يتهم جفري القرآء بتحريف القرآن والتلاعب بأقوال النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وتضخيمها.

١٠. يدعي جفري أنّ عمل زيد بن ثابت تمّ؛ لأجل الخليفة الثالث عثمان، لكنه نسب إلى أبي بكر الصديق كون عثمان شخصية غير موثوقة عن المسلمين؟ وحتى لا يكون لعثمان شرف القيام بالتحرير الأول.

١١. بيّن البحث مواطن الخلل والزلل التي طرحها جفري في بحثه عن تاريخ النص القرآني ، والرد عليها ردًا علميًا وفقًا لمناهج البحث العلمي.

والحمد لله على التمام

قائمة المصادر

١. ابن العربي ، م (٢٠٠٣) أحكام القرآن ، ط٣ بيروت : دار الكتب العلمية .

٢. ابن شيبة ، ع (١٩٧٩) تاريخ المدينة لابن شبة ، جدة السعودية .

٣. أبو خليل ، ش .(١٩٨٢) الإسلام في قفص الاتهام،ط ٥ دمشق : دار الفكر دمشق.

٤. أبو خليل ،ش (١٩٩٠) غوستاف لوبون في الميزان، ط١ بيروت: دار الفكر المعاصر .

٥. أبو شامة ، ع (١٩٧٥) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، بيروت :دار صادر .

٦. ارمسترونغ ، ك .(٢٠١٠) تاريخ الكتاب المقدس ، ط١ : مكتبة الشروق الدولية

٧. الإسكافي ، م (٢٠٠١) درة التنزيل وغرة التأويل ، ط١ مكة المكرمة : جامعة أم القرى.
٨. الاصبهاني، أ (١٩٨٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط ٤ بيروت: دار الكتاب العربي.
٩. الباجي ،س (١٩٩٦) الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنى الدليل ، ط١ مكة المكرمة : المكتبة المكية .
١٠. الباقلاني ، م (٢٠٠١) الانتصار للقرآن ، ط١ عمان : دار الفتح .
١١. البخاري ، م، (١٤٢٢ه) صحيح البخاري، ط١ ، دار طوق النجاة.
١٢. بدوي ، ع (ب- ت) موسوعة المستشرقين، الدار العلمية للفلسفة.
١٣. جفري ، آ. (٢٠١٩) القرآن ككتاب مقدس، ترجمة نبيل فياض، ط١ المانيا : دار أبكالو .
١٤. الرازي ، م. (١٩٩٩) مفاتيح الغيب ، ط٣ بيروت : دار إحياء التراث العربي .
١٥. الرومي ، ف (٢٠٠٣) دراسات في علوم القرآن الكريم ، ط١٢ السعودية .
١٦. رينولد ، ج (٢٠١٢) القرآن في محيطه التاريخي، ط١ بغداد : منشورات الجمل بيروت.
١٧. الزرقاني ، م (ب - ت) مناهل العرفان في علوم القرآن ، ط٣ القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .
١٨. الزركشي ، م (١٩٥٧) البرهان في علوم القرآن، ط١ القاهرة : دار إحياء الكتب العربية
١٩. الزركلي ، خ (٢٠٠٢) الأعلام، ط١٥ بيروت : دار العلم للملايين .

٢٠. السرخسي ، م (ب-ت) أصول السرخسي ، بيروت : دار المعرفة.
٢١. السمعاني ، م . (١٩٩٧) تفسير القرآن ، ط١ السعودية : دار الوطن.
٢٢. السيوطي ، ع (١٩٧٤) الإتقان في علوم القرآن ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢٣. الشوكاني ، م (١٩٩٩) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، ط١ : دار الكتاب العربي .
٢٤. الشيباني ،أ (٢٠٠١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ط١ بيروت ، مؤسسة الرسالة.
٢٥. الصالح ، ص (٢٠٠٠) مباحث في علوم القرآن ، ط٢٤ بيروت : دار العلم للملايين.
٢٦. العسقلاني ، أ (١٩٩٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ط١ بيروت : دار الكتب العلمية.
٢٧. العقيقي، ن. (١٩٦٤) المستشرقون ،ط٣ مصر : دار المعارف .
٢٨. غرديه ، ل . (١٩٨٣) فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية،ط٢ بيروت :دار العلم للملاين .
٢٩. القرطبي ، م (١٩٦٤) الجامع لأحكام القرآن ،ط٢ القاهرة : دار الكتب المصرية.
٣٠. القصاب ، أ . (٢٠٠٣) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام ، ط١ : دار القيم – دار ابن عفان.
٣١. القمي،ع (١٩٩١) تفسير القمي ، بيروت : مؤسسة الأعلمي .
٣٢. لوبون ، غ (٢٠١٢) حضارة العرب ، مصر : مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة.

٣٣. الماتريدي ،م (٢٠٠٥) تفسير الماتريدي،ط١ بيروت : دار الكتب العلمية .
٣٤. المعتزلي ،ع (ب – ت) تثبيت دلائل النبوة، القاهرة : دار المصطفى .
٣٥. نولدكه ، ت (٢٠٠٠) تاريخ القران ، نيويورك : جورج ألمز .
٣٦. النيسابوري ، م (ب– ت) صحيح مسلم ،بيروت : دار إحياء التراث العربي.
٣٧. هارتمان، ر (١٩٩٨) موجز دائرة المعارف الإسلامية، ط١ الشارقة : مركز الشارقة للإبداع الفكري.
٣٨. الهندي ، ر (١٩٨٤) المناظرة التقريرية بين الشيخ رحمت الله الهندي والقسيس بفندر، ط١القاهرة : مطبعة الجبلاوي – القاهرة .